القناة صورة أخرى من هذا السياج . كان السياج عسيرا . وكانت القناة عسيرة . ولكن أحد إخوته كان يحمله على كتفه ويعبر به القناة .

لا يستطيع القارىء أن ينسى الجدل بين حاضر العالم العربى وماضيه ، لا يستطيع أن ينسى التداخل الغريب بين تجارب الطفولة وتجارب باحث مرموق تجاوز الثلاثين فيما نعلم حين كتب الأيام ، اقرأ مرة أخرى حديث الأرانب التى تخرج من الدار كما يخرج منها . ولكن هذه المقايسة تبث فى قلب القارىء شيئا من أسى . فالأرانب تتخطى السياج وثبا أو انسيابا بين قصبه إلى حيث تقرض ما كان وراءه من نبت أخضر ، يذكر منه الكرنب خاصة . الأرانب تستطيع ما لا يستطيعه وتستحق شيئا من حسد . الأرانب صالحت هذا السياج أو أفادت منه ، وعاشت معه حرة لا يفسد حريتها شَىء . لم يقل المؤلف شيئا . إننا فى الشرح نذهب بالألفاظ إلى ما نشاء ، ولا ننسى ، على أية حال ، أن ( المجتمع ) محروم من الوثب ، يدرك إدراكا غامضا أن قواه معطلة . هناك حلم حرية أو جدل بين الحرية والموانع . على هذا النحو تبعد الأيام عن فكرة الولاء المطلق للتلقائية والذاتية ، ونعود الى الفكرة التى عبر عنها قدماؤنا حين قالوا الأديب يثقف اللغة ولايصنع تجارب . ليس بكثير ـ إذن ـ أن يأخذ القارىء ماضى المجتمع وحاضره معا فى قبضته . ليس فى وسعنا ، فى الحقيقة ، أن نعزل الحاضر عن الماضى . حاضر الدكتور طه وماضيه يتحاوران . يتجاذبان ويختصمان . فى ماضى الدكتور طه أو طفولته أرانب تقرض النبت الأخضر ، وتنساب ، وتثب ، وفى حاضر الدكتور طه أو المجتمع أفكار أو نظريات بعضها لاينساب ولا يثب ، وإنما يثير الجدل أو الخصام . بعض الخصام أكثر هدوءا من بعض ، ولكن المجتمع لايستطيع ـ فى أحيان كثيرة ـ أن يقرض النبت الأخضر دون أن يجر على نفسه الويل .

ماضى الدكتور طه طفل يعتمد على قصب السياج مفكرا مغرقا فى التفكير حتى يرده صوت الشاعر قد جلس على مسافة من شماله ، والتف حوله الناس ، وأخذ ينشدهم فى نغمة غريبة عذبة أخبار أبى زيد وخليفة ودياب ، وهم سكوت ، إلا حين يستخفهم الطرب أو تستفزهم الشهوة . لاحظ التقابل الغريب بين طفل يفكر ويغرق فى التفكير والناس الذين لا يفكرون ولا يغرقون . شغلهم الطرب وشغلتهم الشهوة .

أكان الطفل الرمز إذن خاليا من الطرب لا شهوة له . أكان مفكرا فحسب . سؤال لا أدرى كيف تتلقاه ، وكيف تجيب عنه . ولكن الدكتور طه لا يعنيه أن يصف هموم